شعر أبي طالب بن عبد المطلب

في

مناصرة الرسول ﷺ

إعداد

دكتور

محمد محمد خميس

أستاذ مساعد الأدب والنقد

جامعة الأزهر – كلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنين

الطبعة الأولى ٢٠٠٦م

المقدمة ....
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، له الحمد فى الأولى والآخرة ، وصلى الله عليه وسلم وبارك على خير أنبيائه ورسله ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

وبعد :

فإن الاتفاق على شاعريه[1] أبي طالب بن عبد المطلب : عم الرسولﷺ أمر توارد على نقله الأدباء والنقاد والمؤرخون ، لم ينفه ناف ، ولم يشكك فى أمره مرتاب. وكذلك الشأن فى نصرته للرسولﷺ،ومؤازرته له فى دعوته ، والدفاع عنه .

أما ما ورد عن أبي طالب من أشعار ولا سيما ما جاء فى كتاب السيرة النبوية لابن إسحاق (ت١٥١هـ) فإن شكا كثيرا حام حول جزء ليس بالقليل منه ؛ إذ قام ابن هشام (ت٢١٣هـ) بتهذيب سيرة ابن إسحاق ،وراح ينقد ما جاء بها من أشعار ، ويعلق على بعضها بقوله : وأهل العلم بالشعر ينكرها ، أي: ينكر نسبتها إلى طالب ، ويقرر أنها موضوعة .

وكان للناقد الكبير محمد بن سلام الحجمي (ت٢٣٢هـ) موقف من الشعر الموضوع عامة ومن الشعر الذى ذكره ابن إسحاق فى السيرة خاصة ، وذلك فى كتابه (طبقات فحول الشعراء) حيث بين خطأ الوضع وأثره وفساده، وما قدم به ابن إسحاق ، ومن مفهوم كلامه رد لما نسب إلى أبي طالب من شعر فى السيرة.

ولا شك فى أن بعض ما نسب إلى أبي طالب غير صحيح ،ولا شك أيضا فى أن البعض الآخر مما نسب إليه صحيح ،وبدليل ما جاء على لسان

((١) المقصود بالشاعرية هنا هو القدرة على قرض الشعر ،وفرق بين القدرة فى حد ذاتها وبعض ما ينسب إلى صاحبها من أشعار

البعض ممن أذكر صحة نسبة بعض أشعاره ،كابن سلام مثلاً ، حيث يقول : كان أبو طالب شاعراً جيد الكلام[١] . ثم يستشهد من شعره بقوله :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

على أن مما يؤيد هذه الصحة ،فضلا عن الإشارة إلى الشاعرية ، ما جاء فى كتب اللغة من استشهادات ببعض من شعر أبي طالب ،فقد ورد – على سبيل المثال – فى لسان العرب لابن منظور (ت٧١١هـ) استشهاد بنحو ستة عشر بيتا من شعره منها [٢]

أمن أجل حبل لا أباك ضربته بمنسأه قد جر حبلك أحبلا

هلم على حكم ابن صخرة إنه سيحكم فيما بيننا ثم يعدل*

وشعر أبي طالب الصحيح منه وغير الصحيح ، تعددت مصادره وتنوعت مآخذه، فهو مفرق فى كتب اللغة والنحو والأدب والتاريخ، فى صورة أبيات أو قطع أو قصائد أو بعض منها، ومجموع بين دفتي كتب، عنيت بجمعه على نحو سردي، أو فى إطار علمي منظم.

وأول من قام بجمعه والعناية به من القدماء أبو هفان[٣] عبد الله بن أحمد بن حرب البصري النحوى الشاعر (ت ١٩٥هـ) تحت مسمي : (شعر أبى طالب) وهو جمع سردي كما يبدو من أول قصيدة جاءت به فأولها :

خليلي ما أذنى لأول عاذل بصغواء فى حق ولا عند باطل

---

(١) طبقات فحول الشعراء جـ١/ صـ ٢٤٤ تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدني القاهرة.

(٢) انظر مادة : حبل . ثم انظر شواهد أخري فى مواد :أكل،ثوب ،رجم، عيل، كبل، روى، متن.

* وغني عن البيان أن الاحتجاج اللغوي بالشعر لا تظهر قيمته دون نسبته إلى قائل ممن يعتد بعروبتهم وسلامة ألسنتهم .

(٣) انظر: مقدمة ديوان أبى طالب – جمع وشرح محمد التونجى (الدكتور) – دار الكتاب العربى ببيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م

والقافية فى هذه القصيدة على حرف اللام ،مما يدل على أن أبا هفان لم ينظم جمعه على حروف المعجم.

وتوجد من هذا الجمع نسخة مخطوطة بقلم :عفيف بن أسعد. نسخت فى عام ٣٨٠هـ عن نسخة – كما يقول أسعد – كتبت بخط أبي الفتح عثمان بن جنى (ت٣٩٢هـ) وهذه النسخة موجودة فى ليبتسج تحت رقم ١/٥٠٥ وفى نور عثمانية تحت رقم ٢/٣٨٠٠،وفي دار الكتب المصرية تحت رقم أدب ٣٨ش/١[١] ومن المحققين من يشير إلى وجود نسخة من مخطوط أسعد هذا فى خزانة :"آل السيد عيسى العطار"فى بغداد.[٢]

والمحاولة الثانية فى جمع شعر أبي طالب، قام بها على بن حمزة العلوي البصري (ت٣٧٥هـ) تحت مسمى (ديوان أبي طالب) يروي على بن حمزة فى هذا الديوان عن أبى محمد هارون بن موسى التلعكبري (ت٣٨٥هـ) وغيره. وتوجد نسخ مخطوطة من هذا الديوان؛ أولاها لابن حجر (ت٨٥٢هـ) وثانيها لعلي بن جواد الكاظمي، وثالثها لعبد القادر البغدادي (ت١٠٩٣هـ) [٣].

أما فى العصر الحديث، فإن أحدا حتى الآن لم يقم بتحقيق شعر أبى طالب تحقيقا علميا جادا، يثبت صحيحه، وينفى عنه الدخيل والموضوع، وإن كان هناك من قام بمحاولة شرح ما جمع منه كتلك المحاولة

---

(١) فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي م/٢ جـ/٢ صـ٢٨٦- ـ منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض ١٤١١هـ/ ١٩٩١م

(٢) محمد التونجى (الدكتور): ديوان أبى طالب – المقدمة.

(٣) انظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي: م/٧ جـ/١٣ صـ٢٠٨، ٢٠٩ – دار الفكر ١٩٨٠م وخزانة الأدب للبغدادي ٧٦/٢ تحقيق عبد السلام هارون – مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٩٧م ودائرة معارف القرن العشرين مادة طلب ، وتاريخ التراث لسزكين م/٢ جـ/٢ صـ ٢٨٦- .

التي قام بها: محمد خليل الخطيب فى كتابه المسمي: (غاية المطالب فى شرح ديوان أبى طالب) وهو مطبوع طبعة قديمة فى مصر. وكمحاولة الدكتور: محمد التونجى فى كتابه :(ديوان أبى طالب) وهو أيضاً كتاب مطبوع عني مؤلفة بجمع وشرح وتخريج شعر أبي طالب معتمدا فى ذلك على مصادر شعر أبى طالب: كأعيان الشيعة،وسيرة ابن هشام، وخزانة الأدب، والبداية والنهاية، وتاريخ الأمم والملوك، وغاية المطالب وغيرها.

وقد بذل صاحب هذه المحاولة جهدا لا بأس به عبر عنه هو بقوله:((وقد قدمت الديوان للقارئ بشكل يقرب من الكمال، ويضم أغلب الروايات، وقد شرحت فيه الغامض، وأشرت إلى المشكوك فيه والمنسوب إليه ورتبت فهارسه بشكل علمي يسهل على الباحث الأخذ منه، والوصول إلى ضالته فيه))[1]غير أنه لم يف بما وعد به من الإشارة إلى المشكوك فيه والمنسوب إليه.

الصحيح من شعر أبى طالب يؤكد شاعريته، ويشير إلى قدرته على الإبداع فى الفن الشعري، فيما يعن له من خواطر، أو يعتمل فى نفسه من تجارب أو يجيش فى نفسه من مشاعر.

وكانت تجربة كفالته لرسول اللهﷺ بعد موت جده عبد المطلب، ثم مؤازرته ومناصرته لهﷺ بعد مبعثه من أعظم التجارب لديه وأقواها، وأبرزها إفرازا لأكبر كم من شعره على الاطلاق.

ولأن هذه التجربة الحيوية قد أفرزت شعرا يصور بجلاء ووضوح جوانب من سيرة النبىﷺ، وجوانب من مواقف المشركين ضد الدعوة الإسلامية وصاحبها ورجالها، ومواقف بعض رجالات قريش على وجه الخصوص، وما كان من قصة المقاطعة لبنى هاشم فى الوثيقة المعروفة على

---

(١) محمد التونجي (الدكتور) ديوان أبى طالب صـ

غير ذلك من الجوانب التاريخية والإنسانية، فإن تناول هذا الشعر بالدراسة التحليلية، والوقوف على نواحيه الموضوعية والفنية لجدير بالاهتمام والعناية.

على أن ذلك قد يكون حقا لرجل أبلى بلاء حسنا فى نصرة النبيﷺ، والذود عنه، والتفاعل النفسي والشعوري مع مواقف ابن اخيه ودعوته .

تمهيد
﴿المبحث الأول : التعريف بأبي طالب﴾

(١)

أبو طالب[١] هو: عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إياس بن مضر بن نزار بن معدبن عدنان

وقد آثرت ذكر نسبه كاملا؛ لأنه كثيرا ما كان يفتخر به، حين يواجه خصوم النبيﷺ،أو ليعطفهم بذكره على أواصر القربى والمودة فيغيروا من عدائهم، ويعدلوا من مواقفهم .

وعلى الرغم من تعدد الأسماء لأبى طالب، من عبد مناف إلى عمران إلى شيبة، إلا أنه اشتهر بقلب أبي طالب فغلب على أسمائه. وهو عم النبيﷺ يشترك هو وعبد الله والد الرسولﷺ والزبير فى أمومة فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي.

وهنا يجتمع نسب الأم مع نسب الأب فى مرة بن كعب من جهة ويشير إلى درجة أخرى فى الحنو والمودة من قبل أبى طالب على ابن أخيه اليتيم رجحت كفالته دون غيره من الأعمام الذين بلغ عددهم تسعا من أمهات مختلفات.

(٢)

ولد أبو طالب قبل ميلاد النبيﷺ بنحو خمس وثلاثين سنة، وقبل الهجرة بنحو ثمانية وثمانين عاما،أي فى عام ٥٤٠م تقريبا

أما وفاته فكانت فى النصف من شعبان فى السنة العاشرة من بعثتهﷺ وله من العمر بضع وثمانون سنة.

---

(١) محمد التونجي (الدكتور) ديوان أبى طالب صـ٥

لقد أمضى أبو طالب شطرا طويلا من عمره يكفل ابن أخيه فى طفولته، ويرعاه فى صباه وفى شبابه، ويؤازره ويدافع عنه ويحميه من أعدائه فى رسالته ودعوته، لا يألوا جهدا، ولا يدخر وسعا، ولا يلين ولا يستكين فى موقفه، ومن ثم كانت وفاته فجيعة محزنة لرسول الله ﷺ عبر عنها بقوله : ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب[1] كان أبو طالب سيدا فى بنى هاشم، وسيدا فى قريش، يحظى بالوجاهة ويتمتع بالمهابة والمنعة. أسندت إليه مهام السقاية والرفادة بعد أبيه، ولم يكن ذا مال، فأدان من أخيه العباس مالا فأنفقه، ثم عجز عن الوفاء فتنازل عن السقاية والرفادة لأخيه عوضا عن دينه.

وسقاية الحجيج ورفادتهم من الأمجاد التى كانت ولا تزال، وفى الجاهلية كان أكبر أبناء قصي بن كلاب وأحفاده يتولاها بالتوارث.

وبالإضافة إلى تلك المنزلة الرفيعة التى حظي بها أبو طالب فى قبيلته وعشيرته فإنه من بين إخوانه جميعا تبوأ لدى والده منزلة راجحة جعلت عبد المطلب يطمئن إلى إسناد مهمة كفالة رسول الله ﷺ إليه دون تردد، ويرى أن فى أبى طالب من السمات والثفات النفسية والخلقية والسلوكية ما يهيء لمحمد ﷺ مناخا صالحا يترعرع فيه صغيرا وينطلق منه كبيرا.

وتفيد الروايات أن عبد المطلب كان يتوسم فى رسول الله ﷺ فى صغره من عظم الشأن ما كان يجعله أشد تعلقا به،وإكبارا له وشفقة عليه؛ فقد كان يجلسه

---

(١) انظر فى ترجمته: خزانة الأدب للبغدادي ٧٥/٢ ، وعيون الأثر سيد الناس ٣٣/١ ، والروض النف للسهيلي ١٢٣/١ ، والسيرة النبوية لابن هشام قسم ١صـ١٠٩- ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ٣/٥، والكامل لابن الأثير ١٤/٢، ٦٣، ١٠و ٢٧٥/١.

على فراشه الخاص ولا يعبأ بمعارضة ابنائه، ويقول لهم: دعوا ابني، فو الله إن له لشأنا[1] ويروى السهيلي[2] أشطرا تسجل وصية عبد المطلب لأبى طالب، وفيها يقول:

أوصيك يا عبد مناف بعدى بمؤتم بعد أخيه فرد

- مات أبوه وهو حلف المهد-

ولقد تذكر أبو طالب صدى هذه الوصية، بعد رحلته إلى الشام، والتى اصطحب معه فيها رسول اللهﷺ، وعلم من أحد الرهبان ما ينتظر رسول اللهﷺ من خبر عظيم، فقال مرتجزا[3]:

لا توصنى بلازم وواجب

إنى سمعت أعجب العجائب

من كل حبر عالم وكاتب

بأن يحمد الله قول الراهب

---

(١) انظر دائرة معارف القرن العشرين م٥ صـ ٧٦٥

(٢) الروض الآنف ١٣٢/١

(٣) ديوان أبى طالب صـ٢٣، ٢٢.

﴿المبحث الثانى : فى عقيدة أى طالب﴾

(١)

لم يهن أبو طالب ولم يضعف فى الدفاع عن النبيﷺ تجاه المعاداة السافرة التى ووجه بها من قبل المشركين بعد إعلان دعوته .

ولم يستطع أحد أن ينال منه أذى طيلة حياة أبى طالب؛ فقد كان منه فى منعة شديدة ، وسياج من أمان لم يتمكن أحد من اختراقه .

وقد كان هذا الموقف الذى لم يتغير، ولم يتراجع ،مسوغا للقول بأن أبا طالب إنما صدر فى موقفه هذا عن عقيدة إسلامية صحيحة إلى جانب أمانة تنفيذ وصية أبيه، وإلى جانب حبه وحنوه للرسولﷺ.

وإذا لم يكن كذلك فكيف نفسر ما جاء فى شعره من إشادة بالرسولﷺ وذكر لدعوته، وتنويه برسالته؟ وهل يكون مثل هذا الثبات على الدفاع والمناصرة إلا من باب الإيمان الراسخ بصدق الرسالة وصاحبها؟

وهناك معارضون لهذا التوجه فى تفسير موقف أبى طالب، وما عبر به من شعر عن هذا الموقف، يرون موته على الشرك.

ولكل أدلته وبراهينه على ما يذهب إليه. ولأن الأمر فى بيان هذا الموقف مرتبط بكم من شعر أبى طالب فى الدفاع والمناصرة، فإنه يقتضي وقفة تستجلى أمره، وتكشف غامضة، وترجح الصواب منه.

(٢)

القول بإسلام أبى طالب تبناه الشيعة، وبعض غيرهم من المعتزلة والصوفية وقد استندوا فى مدعاهم على ما أورده ابن إسحاق فى السيرة النبوية[1] من أن الرسولﷺ طلب من عمه قبيل موته أن ينطق بالشهادة، وأن العباس (عم

---

(١) -١/٤١٧ تحقيق السقا وآخرين

النبيﷺ) أخبر أنه سمع أبا طالب ورآه يحرك شفتيه بالشهادة.[1]

ويستنتج أصحاب هذا التوجه من موقف أبى طالب الصريم فى الشعب وتحمله العذاب والجوع والقطيعة، قوة إيمان وثبات.

ولو لم يكن ثمة إيمان وثبات على الحق، لتغير الموقف فى مدة المقاطعة فهى لم تكن قصيرة ولا هينة.

على أن القائلين بإسلام أبى طالب يفترقون إلى من يقول بإسلامه صراحة وجهرا، ولا دليل لهم على ما يذهبون، وإلى من يقول بإسلامه سرا، محتجين بأن ذلك كان لصالح الرسول ﷺ ودعوته، إذ لو أعلن إسلامه لناله ما نال المسلمين المستضعفين كبلال وعمار، أو الأشداء كجعفر بن أبى طالب، كما هو مسطر فى مراجع التاريخ الإسلامي، ولما كان له من المنعة فى نظر المشركين، ما يستطيع به أن يدافع عن نفسه ، فضلا عن غيره.

والذى لا شك فيه أن المشركين تعددت محاولتهم مع أبى طالب؛ ليثنى محمداﷺ عن أمره، فلم يفلحوا ، ولم يجدوا منه غير هذا الموقف الذى عبر عنه بقوله: [2]

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منه عيونا

ولم ينجح المشركون إلا فى إبرام صحيفة المقاطعة.

---

(١) هذا ما يستدل به من يذهب إلى القول بإيمان أبى طالب وإن كان يرده أنصار القول بموته على الشرك.

(٢) البداية والنهاية لبن كثير ٤٢/٣ وديوان ابى طالب صـ ٩١

(٣)

ويذهب جمهور أهل السنة والجماعة إلى القول بموت أبى طالب على الشرك يقول الإمام البخاري[١] فى صحيحه عن وفاة أبى طالب :((لما حضرته الوفاة دخل عليه النبيﷺ ، وعنده أبو جهل فقال : أى عم ، قل لا اله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : يا أبا طالب، وترغب من ملة عبد المطلب.....؟)).

وقد حاول أبو طالب أن يعتذر للنبيﷺ على هذا الاختيار فقال له:((لولا أن تعيرني قريش يقولون ما حمله عليه إلا فزع الموت لأقررت بها عينك))[٢].

ولكن المحير حقا ان يكون لأبى طالب هذا الموقف العظيم، من الرسولﷺ ودعوته، وأن يكون له هذا القدر من الشعر الذي يصور من خلاله أبعاد هذا الموقف، دون أن يصدر فيه عن إيمان عقدي؟!

وقد لمح العلامة ابن كثير[٣] هذه المفارقة التى توقع فى الحيرة، ففسرها تفسيرا يذهب الحيرة، ويرسخ الاطمئنان، ويزيل غياهب الظلمة فقال :((وفرق بين علم القلب وتصديقه .... وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة آية١٤٦] وقال تعالى فى قوم فرعون: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل آية١٤] وقال موسى لفرعون:

---

(١) صحيح البخارى ٣٢٦/٢ دار إحياء الكتب العربية

(٢) جزء من الحديث رواه الأئمة: أحمد ومسلم والنسائي والترمذي وهو فى حياة الصحابة ٢٧/١

(٣) البداية والنهاية ١٢٦/٣

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء آية١٠٢])).وبناء على هذا التفريق الجلي بين علم القلب، وتصديق القلب، يتبين أن أبا طالب إنما كان يصدر فى محاماته ومناصرته ودفاعه عن علم قلبي دون تصديق إيماني، ويبقي القول بموته على الشرك هو الصحيح. قال ابن كثير فى تفسيره [1]فى قصته موت أبى طالب:(.... فقال النبيﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فنزلت :﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [سورة التوبه آية١١٣]

(١) ٥١٦/٢ دار الأرقم لبنان

﴿الفصل الأول﴾

من ناحية الموضوع فى شعر أبى طالب

١- الشعر فى موكب الدعوة.

٢- الأغراض الشعرية

١- الشعر في موكب الدعوة.

جزء كبير من شعر أبى طالب الصحيح، والمنسوب إليه يواكب حركة الدعوة الإسلامية فى نشأتها، وفى تطورها مع المواقف والأحداث، إلى أن توفي أبو طالب بعد الخروج من الشعب، وفك حصار المقاطعة الذى فرضه المشركون على بنى هاشم ومن ناصرهم ممن دخلوا فى الإسلام، أو لم يدخلوا ولكنهم أعلنوا وقوفهم إلى جانب رسول اللهﷺ مدافعين ومناصرين .

وفى موكبة هذا الشعر لحركة الدعوة، تبدو أهميته التاريخية، كوثائق تصور بوضوح بعض المواقف البارزة، والخطيرة، والمهمة فى حياة الدعوة الإسلامية. وفى هذا الجانب نتابع الأحداث فى تسلسلها التاريخي، فذلك يكشف لنا تطور الأحداث من جانب، ويصور موقف أبى طالب، ومن ناصره من جانب آخر،وكيف أنهم ثبتوا فى موقفهم،لا تزعزعهم التحديات والعداوات والمغريات التى تفنن المشركون فى استخدامها، وعملوا جاهدين على تفعيل دورها فى كسر شوكة الإسلام والمسلمين، ولكنهم لم يفلحوا وكانت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

أ- قبل البعثة:-

كفل أبو طالب رسول اللهﷺ بعد موت جده عبد المطلب فأسبغ عليه من الحنو والشفقة والمحبة ما جعله-ﷺ- شديد التعلق به . يصور ذلك أبو طالب حينما خرج فى تجارة له إلى الشام، فلما عقد العزم على ذلك وكان محمدﷺ آنذاك صبيا لا يرغب فى مفارقة عمه، ويتعلق بركابه عند سفره، ويبكى طربا عند عودته الأمر الذي حدا بعمه أن يصطحبه معه، فى سفره إلى الشام فى ركب تجارته، وهناك تعرف عليه (بحيري) الراهب، وعلم من

سمات خلقية أنه الرسول المنتظر،فأوصى به عمه، ورد عنه كيد اليهود الذين حاولوا قتله لما علموا من شأنه يقول: [١]

إن الأمين محمدافى قومه ... عندى يفوق منازل الأولاد

لما تعلق بالزمام ضممته ... والعين قد قلصن بالأزواد

فارفضّ من عينيّ دمع ذارف ... مثل الجمان مفرق ببداد

راعيت فيه قرابة موصولة ... وحفظت فيه وصية الأجداد

ودعوته للسير بين عمومة ... بيض الوجوه مصالت أمجاد

ساروا لأبعد طية معلومة ... فلقد تباعد طية المرتاد

حتى إذا ما القوم بصري عاينوا ... لاقوا على شرف من المرصاد [٢]

حبرا فأصدقهم حديثا صادقا ... عنه ورد معاشر الحساد

قوم يهود قد رأوا ما قد رأوا ... ظل الغمام ثاغرى الأكباد

ثاروا لقتل محمد فنا هموا ... عنه وجاهد أحسن التجهاد [٣]

ويبدو أت تعلق النبي ﷺ بعمه في صغره ، ورغبته في ألا بفارقه تجربة شعورية عميقة في نفس أبي طالب أفرزت شعرا كثيرا ، فهو الى جانب ما سبق يعبر عن هذه التجربة في مقطوعة أولها

---

(١) ديوان أبى طالب صـ٣٨

(٢) الزمام : الخيط الذي تقاد به الدابة . العيس : قلصن : تا بعن السير . الأزواد طعام السفر

ارفض : تتابع سيلانة . زارق سائل

البداد: للسيد

(٣) ثاعر : فاتح

بكـــي طربـــا لمـــا رآنـــي محمـــد كـــان لا يرانـــي راجعـــا لمعـــاد [١]

وفي قصيدة مطلعها :

ألم ترنـــي مـــن بعـــدهم هممتـــه بفرقـــة حـــرّ مـــن أبـــين كـــرام [٢]

ومجمل هذا الشعر يصور رحلة النبي ﷺ مع عمه إلي الشام ، ومـا كـان مـن أمر تعرف (بحيرا) الراهب عليه ، ومعرفة أنه هو النبي المنتظر ، وما كان من إكرامه له ، ورد عدوتن اليهود عنه بعد ما عرفـوا مـن صـفاته وأمـره إلى آخر ما هو مسطر في سيرته [٣]ﷺ.

ويبدو كذلك أن أبا طالب قد استشعر بعقب ما رأي في هذه الرحلة وشاهد مـن أمر ابن أخيـه ، أن عبـد المطلـب كـان علـي حـق في المبالغـة بالوصـاية بـه ، والعناية بتربيته ، فراح يقرر أن الأمر فوق مستوي الوصاية الأبويـة ، فهـو أشد وأكبر :

لا تـــوصني بـــــلازم وواجب

إني سمعت أعجـــب العجائب

من كـــــل حبـــر عالم وكاتب

بأن يحمد الله قـــول الـــراهب[٤]

ب- بعد البعثة .

---

(١) ديوان أبى طالب صـ٤٠-

(٢) ديوان أبى طالب صـ٨٧-

(٣) سيرة ابن هشام م١ / جـ٢ صـ ١٨٠ – وما بعدها

(٤) الديوان صـ ٢٢ ، ٢٣ - .

الشعر الذي يصور تجارب أبا طالب بعد البعثة كثير ، يصور مراحل مختلفة من مراحل الدعوة .

١- فهو يصور العداء السافر للرسول ﷺ ولدعوته ولكل من دخل في الإسلام من القرشيين ومواليهم . يقول أبو طالب في ذلك معبرا عن أسفه لتألب القبائل ضد النبي ﷺ ودعوته :

إلا أبلغا عني لؤيا رسالة ... بحث وما تغني رسالة مرسل

بني عمنا الأدنين تيما نخصهم ... وإخواننا من عبد شمس ونوفل

أظاهرتمو قوما علينا أظنة ... وأمر غويّ من غواة وجهل

يقولون إنا قتلنا محمدا ... أقرت نواصي هاشم التذلل

كذبتم وبيت الله يثلم ركنه ... ومكة والإشعار فى كل معمل

تنالونه أو تعطفوا دون نيله ... صوارم تفري كل عظم ومفصل [1]

٢- لقد احتدم العداء بين المشركين وبين المسلمين، فخشي أبو طالب من بأس الكفار وكثرة عددهم، فراح يستحث رهطه وعشيرته تجاه موقف جماعي يخشاه المشركون وأعداء الدعوة:

قل لعبد العزى أخي وشقيقي ... وبني هاشم جميعا عزينا

وصديقى أبي عمارة والإخـ ... ـوان طرا وأسرتي أجمعينا

فاعلموا أنني له ناصر ... ومجر بصولتي الخاذلينا

فانصروه للرحم والنسب الأد ... نى وكونوا له يدا مصلتينا [2]

---

(١) الديوان صـ٧٦

(٢) الديوان صـ٩٢

٣- وكان يكثر التلفت إلى أخيه: أبي لهب، ويطمع منه فى موقف مناصر للنبيﷺ،ولكن أبا لهب آثر مكانته لدى المشركين،فلم تنجح معه المحاولات المتكررة التى كان منها قول أبى طالب:

وإن امرأ أبو عتيبة عمه ... لفى روضة ما إن يسام المظالما

أقول له وأين منه نصيحتى ... أبا معتب ثبت سوادك قائما

فلا تقبلن الدهر ما عشت خطة ... تسب بها إما هبطت المواسما

وول سبيل العجز غيرك منهمو ... فإنك لم تخلق على العجز لازما

وحارب فإن الحرب نصف ولن ترى ... أخا الحرب يعطى الخسف حتى يسالما[1]

وعبثا حاول الرجل أن يستشير أخاه بعمومته لمحمدﷺ،وقبل ذلك قرأنا له كيف استثاره مع بنى هاشم من باب الأخوة التي تجمعها بأب واحد:

قل لعبد العزي أخي وشقيقي ... وبنى هاشم جميعا عزينا

ولعل الأمل فى موقف مناصر يصدر عن أبي لهب، قد بدا سرابا ووهما فغلبت روح السخط عند أبى طالب، واستشعر مرارة اليأس، وهو يستنفر أخاه بكل الوسائل:

عجبت لحلم يابن شيبة عازب ... وأحلام أقوام لديك سخاف

يقولون شايع من أراد محمدا ... بظلم وقم فى أمره بخلاف

فلا تركبن الدهر منه ذمامة ... وأنت امرؤ من خير عبد مناف

فإن له قربى لديك قريبة ... وليس بذى حلف ولا بمضاف[2]

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٧١/١ والبداية والنهاية لابن كثير ٩٣/٣

(٢) ديوان ابى طالب صـ٥٦،٥٥ والزمامة : ما يدل عليه

وإن فى البيت الأخير لسخرية مرة ، لكن أبا لهب تبت يداه وتب، فلم يغنه من قول أبى طالب شيء .

وإذا كان أبو طالب قد فشل مع أبى لهب،وبعض من قومه، فإنه قد وجد من يؤزاره ويشايعه فى مناصرته ومحاماته للرسولﷺ كما سيظهر ذلك عند الحديث عن المقاطعة والدخول فى الشعب.

٤- قرر أبوطالب أن يدافع بكل ما أوتى من قوة عن ابن أخيه، وأن يناصره فى دعوته متحملا هو ومن شايعه كل ما يترتب على هذا الموقف من كيد المشركين وعنادهم، بل وحتى حربهم ،ومن ثم نراه يعلنها صريحة فيقول فى حماسة وبأس شديد:

أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى ... ويصبح من لم يجن ذنبا كذي الذنب

فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا ... لعزاء من عض الزمان ولا كرب

ولما تبن منا ومنكم سوالف ... وأيد أثرت بالقساسية الشهب

بمعترك ضنك ترى كسر القنا ... به والنسور الضخم يعكفن كالشرب[1]

٥- ولعل المشركين وقد عاينوا موقف أبى طالب واستشعروه، قد بدا لهم أن أبا طالب إنما يصدر فى موقفه عن وله بمحمدﷺ، وتعلق قلبي يحمل على بذل النفس فى سبيل مفاداته، فأجمعوا أمرهم على أن يعطوا أبا طالب بديلا له نفس الصفات الخلقية أو قريبا منها- من وجهة نظرهم- يكون عوضا لأبى طالب عن ابن اخيه.

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٥٢/١ ،والبداية والنهائية لابن كثير ٨٧/٣، والروض الأنف للسهيلي ١٠٩/٢ وديوان ابى طالب صـ٢٨-.

ولم يضيعوا وقتا فى تنفيذ هذه الفكرة السياسية، التي ودوا أن تنهى أمر الدعوة الجديدة، فأرسلوا عمرو بن هشام،والوليد بن المغيرة، والمطعم بنت عدى، ومعهم عمارة بن الوليد، البديل الذي يعوض أبا طالب عن ابن أخيه بعد أن يسلمه لهم، وبعد حوار بين الوفد وأبى طالب انتهى برد ورفض الفكرة، عبر أبو طالب عن سفه عقول القوم وسوء تفكيرهم،وخطل رأيهم فقال:

ألا قل لعمرو والوليد ومطعم ... ألا ليت حظى من حياطتكم بكر

من الخور حباب كثير غاؤه ... يرش على الحاذين من بوله قطر

أرى أخوينا من أبينا وأمنا ... إذا سئلا قالا إلى غيرنا الأمر

بلى لهما أمر ولكن تجرجما ... كما جرجمت من رأس ذى العلق الصخر[1]

ثم قال، وكأنه يحادث نفسه ويصبرها:

يقولون لي: دع نص من جاء بالهدى ... وغالب لنا غلاب كل مغالب

وسلم إلينا أحمدا واكفلن لنا ... بنيا ولا تحفل بقول المعاتب

فقلت لهم: الله ربى وناصري ... على كل باغ من لؤى بن غالب[2]

٦- أكثر المشركون على أبى طالب، وترددوا عليه فى سعي إلى الضغط على رسول اللهﷺ حتى يرجع عن دينه ودعوته، باذلين فى هذا الأمر عروضا من جاه ومال، وأطباء للعلاج إن كان بالنبيﷺ مس من جن .

---

(١)سيرة ابن هشام ٢٦٨/١، والبداية والنهائية لابن كثير ٤٨/٣، والروض الأنف للسهيلي ١٠/٢ ،وديوان ابى طالب صـ٤٧، ٤٨- والخور : النوق كثيره اللبن. الحجاب: الصغير القصير الحاذان : الساقان تجرجما : سقطا

(٢) ديوان ابي طالب صـ٢٣-

وأمام هذا الضغط الشديد توجه أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فى حوار رفيق يطلب منه أن ينظر فى الأمر مع الملابسات التى يراها تحيط به، فظن رسول اللهﷺ أن عمه خاذله، وأنه ضعف عن نصرته فقال له: والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يميني والقمر فى شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه[1]. وهنا تعمقت فى نفس أبى طالب تجربة المناصرة والمحاماة، واكتسبت بهذا الرد الرائع حيوية وحياة، وتدفقت فى أوصالها دماء النخوة والشجاعة من جديد، فانطلق يهدر غير مبال بوعد أو وعيد:

لا يمنعك من حق تقوم به أيد تصول ولا سلق بأصوات

فإن كفك كفي إن منيت بهم ودون نفسك نفسي فى الملمات[2]

- والله لن تصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منه عيونا[3]

وعقد أبو طالب عزما لم يلن ، وإرادة لم تضعف، فى مواجهة عواصف البغي والعداء من قبل من تحالفوا على معاداة الدعوة الإسلامية وصاحبها ومن دخل فيها، وكان يطيب له بين اللحظة والأخرى أن يتغنى بالمناصرة والمحاماة كقوله :-

كذبتم وبيت الله نبزي محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

---

(١) انظر سيرة ابن هشام م١ جـ١/٢٦٦

(٢) ديوان أبى طالب صـ٣١

(٣) ديوان ابى طالب صـ٩١

ويـنهض قـوم فـى الحديـد إلـيكم نهوض الروايا تحـت ذات الضلاصـل

ومـا تـرك قـوم لا أبالـك سـيدا يحـوط الـذمار غـير ذرب مواكـل

وأبـيض يستسـقى الغمـام بوجهـه ثمـال اليتـامى عصـمة للأرامـل

يلـوذ بـه الهـلاك مـن آل هاشـم فهـم عنـده فـى نعمـة وفواضـل[1]

٧- فشلت كل المحاولات السياسية التى بذلها المشركون فى إيقاف موكب الدعوة، فانطلقوا يمارسون صنوف العذاب بكل من كان يقع تحت أيديهم من الداخلين فى الإسلام .

ولم يستطع أبو طالب أن يقف بعيدا عن هذه التجربة، فقد عايشها إحساسا حزينا متألما غاضبا، ويتابع الذين فروا إلى الحبشة، ومنهم جعفر بن أبى طالب، ويوجه شعره إلى النجاشي يستحثه على إكرمهم فى ضيافته:

ألا ليت شعري كيف فى النأى جعفـر وعمـرو وأعـداء الـنبي الأقـارب

فهـل نـال أفعـال النجاشـي جعفـرا وأصـحابه أو عـاق ذلـك شـاغب

تعلـم أبيـت اللعـن أنـك ماجـد كريم فلا يشقى لـديك المجانـب

تعلـم بـأن الله زادك بسـطة وأفعـال خـير كلـها بـك لازب

وأنـك فـيض ذو سـجال غزيـرة ينال الأعادي نفعها والأقارب[2]

وهناك أبيات تردد نسبتها بين أبى طالب وابنه علىﷺ ،تعبر عن غضب واستنكار لما حل بعثمان بن مظعون ، أحد الذين طالهم عنت المشركين

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٧٢/١ ، والبداية والنهاية ٥٣/٣ والروض الآنف٢٢/٢ ، وديوان أبى طالب صـ٦٧،٦٦- والرمايا: الإبل التى تحمل الماء . والصلاصل: المزادات. الزمار: ما يدافع عنه الدريك الف حسن . ثمال : العماد والملاذ

(٢) سيرة ابن هشام ٢٨٨/١ وديوان أبى طالب صـ٢٠-

وتعذيبهم بسبب اعتناق الإسلام. وكان عثمان قد طلب جوار الوليد بن المغيرة فأجاره فلما رأى المسلمين يعذبون عز عليه ألا يكون مثلهم، ليكون له من أجر التحمل والصبر على الأذى مالهم، فخرج من جوار الوليد، فضربه أحد المشركين على عينه [1] والأبيات تقول:

أمن تذكر دهر غير مأمون ... أصبحت مكتئبا تبكى كمحزون

أمن تذكر أقوام ذوى سفه ... يغشون بالظلم من يدعو إلى الدين

لا ينتهون عن الفحشاء ما أمروا ... والغدر فيهم سبيل غير مأمون

ألا يرون أذل الله جمعهمو ... أنا غضبنا لعثمان بن مظعون

إذ يلطمون ولا يخشون مقتله ... طعنا دراكا وضربا غير مرهون

٨- وبعيدا عن المواجهة القتالية، رأى المتحالفون من المشركين ضد الدعوة أن يتخذوا موقفا جماعيا يوجع محمداﷺ،ومن معه من المؤمنين او المناصرين،فتمخض موقفهم عن إصدار صحيفة[2] المقاطعة الشهيرة وفيها تكون المقاطعة التامة لبني هاشم، أو يسلموا محمداﷺ ، فلا مناكحة ولا بيع ولا شراء ولا مجالسة، وعلقت الصحيفة بعد التوقيع عليها فى جوف الكعبة، ليكون لها من القداسة ما يوجب الالتزام بنصوصها. فلما فعل المشركون ذلك انحازت بنو هاشم والمطلب فدخلوا كلهم فى الشعب مع أبى طالب، وكانوا أربعين رجلا ما عدا أبا لهب وأبا سفيان.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام م١ جـ٢/٣٧٠

(٢) المرجع السابق م١جـ٢٥٠

وكانت هذه التجربة القاسية التى عانى فيها القوم ما عانوا من الوحدة والجوع والقلق، محكا حقيقا لمدى المناصرة والحماية من قبل من آمن ومن لم يؤمن برسول اللهﷺ.

وقد فجرت هذه التجربة الحادة طاقات شعرية لدى أبى طالب، فراح يصور من خلالها مواقف متعددة، ويبرز على ضوئها آراء مختلفة، ويكشف على وهج من تأثيرها أحاسيسه ومشاعره تجاه قومه.

وفى قصائده الكثيرة فى هذا الشأن[1] يبرز إصراره على نصرة النبيﷺ، فهو لا يفتأ يكرر هذا الأمر ويؤكده، رغم ما يعانيه من أزمات وما يواجهه من تحديات:

فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا لعزاء من عض الزمان ولاكرب

فلا تحسبونا خاذلين محمدا لذى غربة منا ولا متقرب

ستمنعه منا يد هاشمية مركبها فى المجد خير مركب

كذبتم وبيت الله نبزي محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

---

(١) له فى الحديث عن الشعب والصحيفة عدة قصائد ومقطعات هى على ترتيبها الأبجدي: البائية فى ديوان أبى طالب صـ١٧ والبائية الثانية وهى في السيرة ٣٥٢/١ وفى الروض الآنف ١٠٩/٢ وفى البداية والنهاية ٨٧/٣ وديوان ابى طالب صـ٢٧ والبائية الثالثة فى ديوان أبي طالب صـ٢٥ والدالية فى سيرة ابن هشام ١٩/٢ والديوان صـ ٣٣- والدالية الثانية فى الديوان صـ٣٨،٣٧- والرائية فى السيرة ٢٦٨/١ والبداية والنهاية ٤٨/٣ والروض ١٠/٢ واللامية المشهورة فى السيرة ٢٧٢/١ والبداية والنهاية ٥٧/٣ والروض ٢٢/٢ والميمة فى الديوان صـ٨١-

لعمري لقد كلفت وجدا بأحمد ... وإخوته دأب المحب المواصل

أقيم على نصر النبي محمد ... أقاتل عنه بالنقا والقنابل

وإلى جانب الإصرار على المناصرة والمحاماة، عبر أبو طالب عن أسفه العميق، وحزنه الدفين من موقف أبناء عمومته الذين انحازوا على جانب المعادين لرسول الله ﷺ ودعوته، وفي تعبيره عن الأسف يمتزج الحزن بالسخرية وبالتهديد أحيانا، وبالفخر في أحيان أخرى، وكل ذلك يعكس عمق الحزن من جهة، ويصور مدى الاضطراب النفسي من جهة أخرى، يقول معبرا عن الأسف الممض:

تطاول ليلي بهم وصب ... ودمع كسح السقاء السرب

للعب قصي[1] بأحلامهم ... وهل يرجع الحلم بعد اللعب

ونفى قصي بني هاشم ... كنفى الطهاة لطاف الخشب

ويقول في سخرية واستهزاء:

ألا قل لعمرو والوليد ومطعم ... ألا ليت حظي من حياطتكم بكر

من الخور حبحاب كثير رغاؤه ... يرش على الحاذين من بولة قطر

تخلف خلف الورد[2] ليس بلاحق ... إذا ما علا الفيفاء قيل له وبر[3]

فقد سهمت أخلاقهم وعقولهم ... وكانوا كجفر[4] بئسما صنعت جفر

---

(١) قصي بن كلاب الجد الثالث لأبي طالب

(٢) الورد: صفته للجواد.

(٣) وبر: دويبة صغيرة الجفر العترة

(٤) الجعفر: المعزة

ولأ بلغ فى السخرية والاستهزاء من أن يشبه من ذكرهم بـبعير لاخـير فيـه ومن عنزة خرقاء.

ويقول مهددا:

وإنـى لعمـر الله إن جـد مـا رأى ... لتلتـبس أسـيافنا بالأماثـل

بكف امرئ مثل الشهاب سميدع[1] ... أخـي ثقـة حـامى الحقيقـة باسـل

ويقول فى اعتزاز وفخر:

ونحـن الصـميم مـن ذؤابـة هاشـم ... وآل قصـي فـى الخطـوب الأوائـل

وكـان لنـا حـوض السـقاية فـيهم ... ونحن الذرى منهم وفوق الكواهل

ثم يقول معتزا ومتوعدا:

فبلـغ قصـيا أن سينشـر أمرنـا ... وبشـر قصـيا بعـدنا بالتخـاذل

ولـو طرقـت لـيلا قصـيا عظيمـة ... إذا مـا لجأنـا دونهـم فـى المداخل

أما آراؤه فى بنى قومه ممن تألب عليه وعلى مناصرته للنبىﷺ فقد برزت واضحة فى تعبيرات مختلفة منها : الاتهام بالسفه كقوله:

لقـد سـفهت أحـلام قـوم تبـدلوا ... بـني خلـف قيضـا بنـا والغياطـل[2]

والاتهام بوضاعة النسب: كقوله:

بنـى أمـة مجنونـة هندكيـة [3] ... بـني جمـح عبيـد قـيس بـن عاقـل

وبوضاعة المكانة:

---

(١)السميدع: السيد

(٢)الغياطل: قوم منسوبون إلى غيطلة: امرأة كاهنه.

(٣)هندكية : هندية.

وســـهم ومخـــزوم تمـــالوا وألبـــوا علينا العدا من كل طمل[1] وخامل

وشائظ [2] كانت فى لؤي بـن غالـب نفـاهم إلينـا كـل صـقر حلائـل

لكن إشراق النفس ينعكس على تعبير أبى طالب عندما أكلت الأرضة صحيفة المقاطعة فمحت ما فيها من إبرام الشر، وتركت ما فيهـا مـن معـالم الخـير، وكان نفر من قريش تعاهدوا على تمزيق الصحيفة استنكارا لمضي المقاطعـة، وهم: هشام بن عمرو، والمطعم بن عدي، وربيعة بن الأسود، وأبـو الـبحتري ابن هشام، وزهير بن أبى أمية المخزومي، فلما أجمعوا أمرهم لم يجـدوا فـى الصحيفة ومنها إلا اسم رب العزة سبحانه[3].

لقد امتلأ أبو طالب بشرا وسرورا، وكان أول حديثه بشـارة يزفهـا إلى الـذين فروا بدينهم، ومنهم ابنه جعفر:

ألا هـل أتـى بحرينـا صـنع ربنـا علـــى نـــأيهم والله بالنـــاس أرود

فيخـــبرهم أن الصـــحيفة مزقـــت وأن كـــل مـــا لم يرضـــه الله مفســـد

وبعد أن ينعى على الـذين شـاركوا فـى إثـم صـحيفة المقاطعـة،يفتخر بنشـوة النصر فيقول :

فمـن يـنش مـن حضـار مكـة عـزه فعزتنـــا فـــى بطـــن مكـــة أتلـــد

نشـأنا بهـا والنـاس فيهـا قلائـل فلـم ننفـك نـزداد خـيرا ونحمـد

ويلتفت بروح الوفاء الى الذين مزقوا الصحيفة فيقول مادحا ومثنيا:

جـزى الله رهطـا بـالحجون تتـابعوا علـى مـلأ يهـدى لحـزم ويرشـد

---

(١) الطمل : الفاحش البذئ الذى لا يبالى.

(٢) الوشائظ : السفلة.

(٣) السيرة م١جـ٢/٣٧٤ وما بعدها.

قعـودا لـدىحطم الحجـون كـأنهم مقاولـة بـل هـم أعـز وأمجـد
قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا علـى مهـل وسـائر النـاس رقـد
هم رجعوا سـهل بـن بيضـاء راضـيا وسـر أبـو بكـر بهـا ومحمـد

وفى موضع آخر يشير إلى العبرة البارزة من أمر الصحيفة، وهى أكل الأرضة لها:

وقـد كـان فـى أمـر الصحيفة عـبرة أتـاك بهـا مـن عائـب متعصـب[1]
محـا الله منهـا كفـرهم وعقـوقهم وما نقموا من صـادق القـول منجـب
فأصـبح مـا قـالوا مـن الأمـر بـاطلا ومن يختلق ما ليس بـالحق يكـذب

٩- عادت الحياة الطبيعيـة لبنـى هاشـم وبنـى المطلـب، ولكـن أبـا طالـب لم يمكث من بعدها طـويلا، فقـال قبيـل موتـه وبعـد أن علـم بترصـد المشـركين للنبيﷺ :

أوصى بنصـر النبـى الخـير مُشـهده عليًـا ابـني وعـمَّ الخـير عباسـا
وحمـزة الأسـد المخشـي صـولته وجعفـرا أن تـذودوا دونـه الناسـا
وهاشمـا كلـها أوصـي بنصـرته أن ياخذوا دون حرب القوم أمراسـا
كونوا فـدى لكـم نفسـي ومـا ولـدت مـن دون أحمـد عنـد الـروع اتراسـا
بكـل أبـيض مصـقول عوارضـه تخالـه فـى سـواد الليـل مقباسـا[2]

٢- الأغراض الشعرية .

(١) فى الكامل لابن الثير ٦٢/٢ جاء الشطر الثانى من البيت الأول هكذا: متى ما يخبر غائب القوم يعجب، ولعله هو الصواب لتوافق معناه مع الشطر الأول.

(٢) ديوان أبى طالب صـ٥٣ وهذه الأبيات يظهر عليها آثر الوضع، فلم يكن جعفرا بحاضر لهذه الوصية إذا كان فى الحبشة مع من هاجر إليها.

فى إطار الحماية لرسول الله ﷺ،ومناصرته، تنبثق مجموعة من أغراض الشعر تدور حول المدح والفخر، والعتاب والشكوى، والوصف أو الهجاء. ويحتل الفخر والشكوى من هذه الأغراض أوسع مساحة فى شعر أبى طالب، وربما انبثقت بعض الأغراض من هذين الغرضين ففي الفخر يقول[١]:

إذا اجتمعت يوما قريش لفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها [٢]

فإن حصلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرفها وقديمها [٣]

فإن فخرت يوما فإن محمدا ... هو المصطفى من سرها وكريمها

تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم تظفر وطاشت حلومها[٤]

وكنا قديما لا نقر ظلامة ... إذا ما ثنوا صعر الخدود نقيمها[٥]

ونحمى حماها كل يوم كريهة ... ونضرب عن أحجارها من يرومها [٦]

بنا انتعش العود الذواء وإنما ... بأكنافنا تندى وتنمى أرومها[٧]

وهو يؤكد أن الفخر برسول الله ﷺ فى الأوساط الهاشمية يفوق كلّ فخر سواه؛ لاصطفاء الله له ، وهو أمر يسر به كل هاشمي، ولكرم محتده وشرف أرومته التى توسطت القبائل فحازت المجد طارفه وتليده، وتوارثته كابراً

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٦٩/١ والبداية والنهاية٤٩/٣ ، والروض ١١/٢.والديوان صـ٨٢

(٢) سرها: وسطها.صميمها : خالصها . وعبد مناف بن قصي هو الجد الثالث لرسول الله ﷺ وأبناؤه الذكور: هاشم وعبد شمس والمطلب. انظر المصعب الزبيري: نسب قريش صـ١٤.

(٣) وهاشم كما فى نسب قريش صـ١٥ لم يكن له من الذكور إلا عبد المطلب.

(٤) الغث فى الأصل : اللحم الضعيف، واستعير هنا لمن ليس نسبه هناك

(٥) صعر خده : أي ماله تكبرا.

(٦) الأحجار: المراد بها الحصون. وعلى رواية الأحجار فالمراد البيوت والمساكن من باب الاستعارة.

(٧) الذواء: الذى جفت رطوبته . الأروم: جمع أرومة وهي الأصل.

عن كابر ثم يشير إلة منعة الهاشميين بين القبائل، وإبائهم للضيم، وحمايتهم للذمار ورعايتهم لحق الجوار، وما يترتب عليه من حماية المستضعفين. ويقول أيضا على نفس النمط السابق [١]:

ونحن الصميم من ذؤابة هاشم وآل قصي في الخطوب الأوائل

وكان لنا حوض السقاية فيهم ونحن الذرى منهم وفوق الكواهل[٢]

ولكننا نسل كرام لسادة بهم نعى الأقوام عند البواطل

ويقول فى بيان جلده وصبر قومه على مقارعة الخطوب، ويشير إلى أنفتهم وعقولهم الراجحة فى المواقف الحرجة التى تخون الشجعان فيها شجاعتهم: [٣]

ولسنا نمل الحرب حتى تملنا ولا نشتكى ما قد ينوب من النكب

ولكننا أهل الحفائظ والنهى إذا طار أرواح الكماة من الرعب[٤]

ويغتنى بمجد قومه القديم فى العزة وبسبقهم المتزايد فى الخيرات والمكرمات التى تستوجب الثناء، وتلك الخيرات والمكرمات التى منها الكرم والسخاء الذى لا يبارى فيقول[٥]:

فمن ينش من حضار مكة عزه فعزتنا فى بطن مكة أتلد

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٧٢/١ والبداية والنهاية ٥٣/٣ والروض ٢٢/٢. والديوان صـ٧٠

(٢) حوض السقاية: إشارة إلى شقاية الحجيج. وهو من الأمجاد التى تدل على السيادة .

(٣) سيرة ابن هشام ٤/٢ والديوان صـ٢

(٤) الحفاظ والمحافظة : الأنفة. النهى: واحدتها نهية وهى العقل . الكماة : جمع الكمي وهو الشجاع المتكمي فى سلاحه

(٥) ذكرت مصادر هذه الأبيات سلفا.

نشأنا بها والناس فيها قلائل فلم ننفك نزداد خيرا ونحمد

ونطعم حتى يترك الناس فضلهم إذا جعلت أيدي المفيضين ترعد[1]

تلك بعض شواهد الفخر فى شعر أبى طالب، ولا شك أن عزف أبى طالب على هذه النغمة يدل على اعتزازه بمجد قومه، وميله الشديد إلى سيادتهم بكل ما يدعم هذه السيادة ويضيف إليها، ويعكس من جهة أخرى رغبته فى ظهور أمر محمدﷺ حتى ولو لم يكن معتقداً له، لأن هذا هو المجد الذى سيسر به الهاشميون الأولون والآخرون.

وتأتى الشكوى فى شعر أبى طالب تبين عن رد الفعل فى نفسه تجاه مواقف قومه من الدعوة الإسلامية،ومن صاحبها عليه السلام، ومن ذلك قوله[2]

ولما رأيت القوم لا ود فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وقد صارحونا بالعداوة والأذى وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

وقد حالفوا قوما علينا أظنة يعضون غيظا خلفنا بالأنامل[3]

فهو فى أسف شديد لما باداه به قومه من كراهية، دون اعتبار للروابط والأواصر القبلية، ومن مجاهرة بالعداوة استجابة لأعدائه،ومن تحالفهم ضده مع أعدائه الذين ينفسون على بنى هاشم مكانتهم، ولم يجد أبو طالب عزاء له تجاه مواقف قومه إلا أن يصبر فى شجاعة، وأن يلجأ إلى الله مستجيرا بالبيت الحرام، وبالأماكن المقدسة. يقول:

---

(١) المفيضون: المضاربون بقداح الميسر، وكان لا يفيض معهم فى الميسر إلا سخي

(٢) سيرة ابن هشام ٢٧٢/١، والبداية والنهاية ٥٣/٣. والروض الأنف ٢٢/٢ وانظر فى الشواهد التالية اللامية من نفس المصدر. وصف الديوان صـ٦٣-٧٤

(٣) أظنة : الظنين المتهم، والظنة: التهمة

وأحضرت عند البيت رهطي وإخواتي ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل[1]

قياما معا مستقبيلن رتاجه ... لدى حيث يقضي نسكه كل نافل[2]

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم ... بمفضى السيوف من إساف ونائل

أعوذ بالله من كل طاعن ... علينا بسوء أو ملح بباطل

ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ... ومن ملحق فى الدين مالم تحاول

وثور ومن أرسى ثبيرا مكانه ... وراق ليرقى فى حراء ونازل[3]

وبالبيت حق البيت من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل

وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل[4]

إلى أن يقول:

فهل بعد هذا من معاذ لعائذ ... وهل من معيذ يتقي الله عاذل

ثم أخذ يبين فى شكوى مرة مواقف بعض الأشخاص الذين تزعموا حركة العداء فقال:

لعمري لقد أجرى أسيد وبكره ... إلى بغضنا وجزآنا لآكل

وعثمان لم يربع علينا وقنفد ... ولكن أطاعا أمر تلك القبائل

أطاعا أبيا وابن عبد يغوثهم ... ولم يرقبا فينا مقالة قائل

كما قد لقينا من سبيع ونوفل ... وكل تولى معرضا لم يجامل

إلى أن يقول:

---

(١) الوصائل : ثياب حمر فيها خطوط كان يكسى بها البيت

(٢) كل نافل: كل متبرئ

(٣) ثور وثبير وحراء : جبال بمكة

(٤) اكتنفوه : أحاطوا به

ومـر أبـو سـفيان عنـى معرضـا كما مر قيـل مـن عظـام المقـاول[1]

وسر الشكوى من هؤلاء يرجع إلى ما كان ينتظر منهم من مناصرة وحب.

وعلى نفس النمط يشكو أبو طالب من بعض القبائل فيقول:

وسـهم ومخـزوم تمـالوا وألبـوا علينا العدا من كل طمل وخامل[2]

وحتى لا يظن بأبى طالب الضعف من خلال شكاياته فقد كان ينـتفض ليؤكـد مناصرته لرسول اللهﷺ مكذبا كل زعم يرى خذلانه لابن أخيه، وتخليـه عـن الدفاع عنه فيقول:

كـذبتم وبيـت الله نبـزى محمـدا ولـما نطـاعن دونـه ونناضـل[3]

ونسـلمه حتـى نصـرع حولـه ونـذهل عـن أبنائنـا والحلائـل

ويأتى العتاب فى شعر أى طالب قويا يبلغ حد السخرية والتهكم وَلَيناً يبلـغ حد الملاطفة والموادعة، ومن الأول قوله:

ألا قـل لعمـرو والوليـد ومطعـم ألا ليـت حظـى مـن حيـاطتكم بكـر

من الخـور حبحـاب كـثير رغـاؤه يرش على الساقين من بوله قطر[4]

تخلف خلف الـورد لـيس بلاحـق إذا ما على الفيفـاء قيـل لـه وبـر[5]

---

(١) فى صـ٢٨٢، ٢٨١- قسم١ من سيرة ابن هشام بيان بأسماء الذين ذكرهم أبو طالب

(٢) ألبوا : جمعوا. الطمل: الرجل الفاحش، والفقير أيضاً

(٣) نبزى : أى نسلبه ونغلب عليه، أراد لانبزى نحذف لا من جواب القسم

(٤) الخور: الضعاف والحبحاب: القصير، ويرى جبجاب : أى كثير الهدر

(٥) الفيفاء : الصحراء الملساء وبر : دويبة على شكل الهرة

فهو يعرض بعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة والمطعم بن عدي،عندما خذلوه بعرضهم عمارة بن الوليد ليأخذه بدلا من محمدﷺ ،وقد بلغ حد التعريض مبلغه عندما استحضر صورة البَكْر من الإبل، وهو ضعيف قصير الرغاء، لا يستطيع التحكم فى بوله، ولا يستطيع اللحاق بالقطيع عند ورده، يحسبه الناظر دويبة من الوبر، إذا ما ارتفع على مكان من الصحراء وهى صورة مزهدة فيه ومرغبة عنه، لقلة نفعه وسوء منظره، ومع هذا فهو أنفع من عمرو وصاحبيه عند أبى طالب، وأحلى منظرا منهم وهم يساومونه فى محمدﷺ،ويطلبون تسليمه إليهم فى مقابل عمارة.

ومن قوله يسخر:

فكل صديق وابن أخت نعده ... لعمرى وجدنا غبه غير طائل[1]

سوى أن رهطا من كلاب بن مرة ... براء إلينا من معقه خاذل

وهنا لهم حتى تبدد جمعهم ... ويحسر عنا كل باغ وجاهل

فهو فى سياق عتبه على العصبيات من قومه وشكواه منهم تطرق إلى الحديث عن الأصدقاء والأقارب من جهة الخئولة، فكشف لنا فى عتابه وسخريته عن سوء موقفهم تجاهه ، وتخاذلهم عن مناصرته، وتفرقهم من حوله، وهوانه عليهم حتى طمع فيه البغاة والجهلة ويخص فى هذا الحديث رهطا من الأصدقاء والأقارب من بطون كلاب بن مرة فيصفهم على سبيل السخرية بالوفاء والبر، وهو يريد التأكيد على عقوقهم وتخاذلهم.

ويقول بلهجة التهديد والسخرية:

---

(١) الغب: المراد به هنا العاقبة

ليهنئ بنى عبد مناف عقوقنا وخذلاننا وتركنا فى المعاقل

فإن نك قوما نتئر ما صنعتم وتحتلبوها لقحة غير باهل[١]

فأبلغ قصيا أن سينشر أمرنا وبشر قصيا بعدنا بالتخاذل

ومن النوع الثانى وهو العتاب اللين الهادئ قوله:

وذاك أبو عمرو أبى غير بغضنا ليظعننا فى أهل شاء وجامل[٢]

يناجى بنا فى كل ممسى ومصبح فناج أبا عمرو بنا ثم خاتل[٣]

ويؤلى لنا بالله ما إن يغشنا بلى قد نراه جهرة غير حائل[٤]

وسائل أبا الوليد ماذا حبوتنا بسعيك فينا معرضا كالمختال[٥]

وكنت امرأ ممن يعاش برأيه ورحمته فينا ولست بجاهل

فعتبة لا تسمع بنا قول كاشخ حسود كذوب مبغض ذى دغاول[٦]

فهذا لون من الترفق فى القول والموادعة فى الخطاب، ينتهجه أبو طالب فى عتابه (لقرظه بن عمرو) و (عتبة بن ربيعة) مبينا لكل منهما موقفه العدائي ضد بنى هاشم لنصرتهم لرسول الله ﷺ، وهو فى هذا يود أن يعطفهم عليه، ويقربهم منه، ويغيرهم عن موقفهم هذا إلى موقف إيجابى تبدو فيه المناصرة والمعاضدة له ضد من يعادونه من قومه.

---

(١) نتئر: نأخذ بثارنا منكم،اللقحة: الناقة ذات اللبن ، الباهل : الناقة التى صرار على أخلافها فهى مباحة الحلب

(٢) أبو عمرو: هو قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف . الشاء: اسم للجميع وكذلك الجامل.

(٣) الختل: الخداع والمكر.

(٤) يؤلى : يقسم.

(٥) أبو الوليد عتبة بن ربيعة.

(٦) الدغاول: الأمور الفاسدة.

وفى مقدمة مدائح أبى طالب مدحه لرسول اللهﷺ؛ومن ذلك قوله يعبر عن حبه له، ويصفه بالسيادة والشرف؛ والحلم والرشد والعدل والحكمة، ويعلق عليه آمال الناس فى الخلاص مما هم عليه من فساد،لأنه يصدر فى أمره عن ربه الذي يرعاه ويؤيد بنصره، ولأنه يأتى بالحق الذي لا يشويه باطل:

لعمري لقد كلفت وجدا بأحمد ... وإخوته دأب المحب المواصل

فلا زال فى الدنيا جمالا لأهلها ... وزينا لمن ولاه رب المشاكل[1]

فمن مثله فى الناس أي مؤمل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل

حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالى إلاها ليس عنه بغافل

فأيده رب العباد بنصره ... وأظهر دينا حقه غير باطل

وفى نقض الصحيفة التى تعاهدت فيها قريش على مقاطعة بنى هاشم قال أبو طالب يمدح هشام بن عمرو بن ربيعة، وزهير بن أبى أمية، والمطعم بن عدى وأبا البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، فدعا لهم بالخير، ووصفهم بالتناهى فى العزة والسيادة، والإقدام والشجاعة فى النوازل والملمات، وكذلك وصفهم بالإباء والعزة ، وأشاد ببأسهم وجودهم ويمن طالعهم وحسن تدبيرهم وحكمتهم، وحمد لهم صنيعهم فى تمزيق الصحيفة؛ لأنهم بهذا الصنيع أثلجوا صدور المؤمنين، وفي مقدمتهم محمدﷺ

(١) رب المشاكل: لعله يريد بالمشاكل العظيمات من الأمور

وأبو بكر الصديق وسهل بن وهب بن ربيعة وأرضوهم وأبهجوهم كما حققوا أمنية غالية لبنى هاشم . يقول[١]

جزى الله رهطا بالحجون تبايعوا ... على ملأ يهدى لحزم ويرشد[٢]

قعدوا لدى حطم الحجون كأنهم ... مقاولة بل هم أعز وأمجد[٣]

أعان عليها كل صقر كأنه ... إذا ما مشى فى رفرف الدرع أحرد[٤]

جرئ على جلى الخطوب كأنه ... شهاب بكفى قابس يتوقد

من الأكرمين فى لؤى بن غالب ... إذا سيم خسفا وجهه يتربد[٥]

طويل النجاد خارج نصف ساقه ... على وجهه يسقي الغمام ويسعد

عظيم الرماد سيد وابن سيد ... يحض على مقري الضيوف ويحشد

ويبنى لأبناء العشيرة صالحا ... إذا نحن طفنا فى البلاد ويمهد

ألظ بهذا الصلح كل مبرأ ... عظيم اللواء أمره ثم يحمد

قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا ... على مهل وسائر الناس رقد

هم رجعوا سهل بن بيضاء راضيا ... وسر أبو بكر بها ومحمد

وكان فى أبى طالب حدة تبرز بين الحين والحين فيندفع فى هجاء بعض من عادوا بسبب مؤازرته لرسول الله ﷺ، ويدل على هذه الحدة تعليق ابن هشام فى سيرته على بعض قصائده بقوله : ((تركنا منها بيتين أقذع فيهما[١])).

---

(١) انظر السيرة لابن هاشم ٣٧٨/١، والبداية والنهاية ٤٢/٣ والروض ١٢٨/٢. والديوان صـ٣٤

(٢) الرهط : ما دون العشرة من الرجال. الحجون : موضع بأعلى مكة.

(٣) حطم الحجون: مقدمه. والمقالة: الملوك

(٤) رفرف الدرع: ما فضل منه . وأحرد : بطئ المشي لثقل الدرع الذي عليه

(٥) يتربد: يتغير إلى السواد . وسيم : كلف . وخسفا: ذلا.

ومن قوله يهجو أقرباءه من بطون عبد شمس ونوفل على وجه الخصوص فينبغي عليهم سقوط منزلتهم، وذهاب هيبتهم، وعقولهم، وإدخالهم السوقة والرعاء من الناس فى أمرهم، كما ينعى على قبائل تيم ومخزوم وزهرة اشتراكهم مع بطون عبد شمس ونوفل فى هذا، ومعاداتهم له ولقومه بعد المودة والمناصرة، ويصف الجميع بسفاهة الأحلام والعقول، ويشبههم فى ضعف شأنهم وهوانهم بصغار المعز ، ثم يهددهم ويتوعدهم بالعداوة ما دام فى بني هاشم نسل [٢]:

أرى أخوينا من أبينا وأهلنا ... إذا سئلا قالا إلى غيرنا الأمر

بلى لهما أمر ولكن تجرجما ... كما جرجمت من رأس ذى علق الصخر[٣]

أخص خصوصا عبد شمس ونوفلا ... هما نبذا نا مثل ما ينبذ الجمر[٤]

هما أغمزا للقوم فى أخويهما ... فقد أصبحا منهما أكفهما صفر[٥]

هما أشركا فى المجد من لا أباله ... من الناس إلا أن يرس له ذكر[٦]

وتيم ومخزوم وزهرة منهم ... وكانوا لنا موالى إذا بغي النصر

فوالله لا تنفك منا عداوة ... ولا منهم ما كان من نسلنا شفر[٧]

---

(١) قسم ١/٢٦٨.

(٢) انظر المصدر السابق نفس المكان.

(٣) تجرجم: سقط وانحدر. ذي علق: جبل في ديار بنى أسد.

(٤) عبد شمس ونوفل: أخوان لهاشم. أحدهما شقيق وهو عبد شمس والآخر لأبيه.

(٥) أغمز: أي استضعف وعاب وصغر.

(٦) يرس: أي يذكر فى خفاء.

(٧) شفر : أحد

فقد سفهت أحلامهم وعقولهم وكانوا كجفر بئس ما صنعت جفر [١]

وكذلك يهجو مرة أخرى بطون عبد شمس ونوفل فيدعو عليهم بالشر العاجل الذى يساوى عداوتهم لبنى هاشم وبنى عبد المطلب، ويخص فى هجائه النفر القليل الذى تولد من نوفل بن عبد مناف، فيصفهم باللؤم والشرمن بين ولد معد بن عدنان، ثم يتوعد بنى قصي بن كلاب بن مرة بالتخاذل بعد ظهور أمر النبى ﷺ، ويهددهم بعدم وقوفه وقومه إلى جانبهم عند الطوارق والدواهى العظيمة، وهم بذلك سيهزمون ولا يجدون من يحمي نسائهم وأطفالهم إلا بنى هاشم وبنى عبد المطلب فيقول[٢] :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجل غير آجل

بميزان قسط لا يخس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل[٣]

ورهط نفيل شر من وطئ الحصى وألأم حاف من معد وناعل

فأبلغ قصيا أن سينشر أمرنا وبشر قصيا بعدنا بالتخاذل

ولو طرقت ليلا قصيا عظيمة إذا ما لجأنا دونهم فى المداخل

ولو صدقوا ضربا خلال بيوتهم لكنا أسى عند النساء المطاقل[٤]

---

(١) الجفر ك ولد المعز إذا بلغ أربعة اشهر.

(٢) مرت إشارة إلى مصادر القصيدة اللامية لأبى طالب والتي منها هذه الأبيات.

(٣) العائل : الحائر.

(٤) المطافل : ذوات الأطفال.

﴿الفصل الثاني﴾

من الناحية الفنية لشعر أبي طالب

١ـ البناء الفني

٢ـ المعاني والأفكار

٣ـ الأسلوب

١- البناء الفني.

من حيث البناء نلاحظ أن شعر أبي طالب جاء بعضه فى شكل قصائد وبعضه فى شكل مقطعات، وقد تنوعت الأغراض وتداخلت فى القصائد، ولا سيما في الطويل منها، وذلك على طريقة الشعراء القدماء، ففى القصيدة اللامية مثلا:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل

نرى فيها الشكوى والإباء والشمم، والاستعاذة بالله وبالبيت الحرام والأماكن المقدسة، والمدح لرسول الله ﷺ والتصميم على مناصرته والدفاع عنه، كما نرى فيها الفخر والعتاب والهجاء،وكل ذلك ليس على نسق واحد، أو نظام مطرد،فالشكوى مثلاً تتكرر أكثر من مرة، وكذلك الهجاء والمدح، مما يجعل القصيدة من ناحية الشكل العام تعانى اضطراباً، وإن كانت من الناحية الموضوعية والشعورية تتسم بالوحدة؛ فأبو طالب فى هذه القصيدة يعانى نفسياً من عداوة قومه له تجاه موقفه من ابن أخيه ﷺ، ويملؤه الأسى والأسف من هذا الموقف، وقد حاول كثيرا أن يعطف قومه عليه فلم يفلح، ومن ثم نراه مضطرب النفس مشتت العاطفة؛ فحين يشكو يحس بالهوان فينتقض أبياً، ولكنه لا يأنس من نفسه ولا ممن حوله القوة اللازمة لمقاومة عداء القرشيين ، فيلجأ إلى البيت الحرام وإلى ربه محتمياً مستعيذا، فإذا ما أطمأنت نفسه من ثورة الإباء عاودها الأسف والأسى من عداوة القوم، وهنا تظهر الشكوى مرة أخرى، ولكنها تومض سريعاً فيحتويها الإباء والشمم فى تصميم على نصرة الرسول ﷺ،وعلى البقاء حوله فى مكة، حتى ولو أدى ذلك إلى مجابهة حربية، ففى بنى هاشم أهلية لهذه المواجهة، وفى الدفاع

عن محمد ﷺ شرف ومجد وكبيران ، وفى غمار هذه النشوةالتى يتخيل فيها أبو طالب نفسه وقومه فى نصر على أعدائهم تطيب نفسه وتسكن ثورته، فيعادوه الإحساس بالأسى ومن ثم ينطلق لسانه بالشكوى .

وقد مضى أبو طالب فى قصيدته على هذا النحو حتى آخرها . فالقصيدة إذن على الرغم من تنوع الأغراض وتكرارها لم تفقد وحدة الترابط الشعورى وإن جاء مضطربا تجاه مواقف القرشيين وعدائهم.

ومن الواضح أن القصائد القصيرة تتسم بقلة الأغراض، وقد تجئ كلها فى إطار غرض واحد شأن المقطعات، ومن ثم تخلو من الاضطراب الذي أشرت إليه فى اللامية.

من حيث البناء أيضا نرى كل قصائد أبى طالب ومقطعاته تخلو من المقدمات المعروفة فى شعر شعراء الجاهلية وغيرهم، من الوقوف على الأطلال، ووصف الحبيبة أو تذكرها على غير ذلك، وتسهل من البداية بطرح الموضوعات التى تعن لأبى طالب وتشغل أحاسيسه ومشاعره ، وكأن أبا طالب كان يقصد أن يكون شعره سفيرا بينه وبين قومه ، وهذا ما نلحظه تصريحا فى بعض شعره وتلميحا فى بعضه الآخر، فمن التصريح باعتبار شعره رسائل إعلامية موجهة ، قوله مستهلا:

ألا قل لعمرو والوليد ومطعم ألا ليت حظي من حياطتك بكر

وقوله:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا لؤيا وخصا من لؤى بنى كعب

وقوله:

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا　　على نأيهم والله بالناس أرود

ومن التلميح قوله:

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر　　فعبد مناف سرها وصميمها

وقوله:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم　　وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وفيما بينه وبين وأخيه أبى لهب تلك الرسالة التى بدأها بقوله:

وإن امرأ أبو عتيبة عمه　　لفى روضة ما إن يسام المظالما

باستعراض مجموع شعر أبى طالب فى الدعوة الإسلامية، نجده يتشكل فى بحور الطويل والخفيف والبسيط والمتقارب والرجز والوافر والسريع ومن هذه البحور ما يتناسب فى طوله مع استرسال النفس وهدوئها ومنها ما يتناسب مع ثورتها وقلقها واضطرابها.

٢- المعانى والأفكار.

لقد صدر أبو طالب فى معاينه وأفكاره عن عاطفة الحب لرسول الله ﷺ، ومن ثم كان رسول الله ﷺ فى نظره على أعلا مستوى من التقدير والاحترام والتعظيم ومع هذا الحب وما تبعه من تقدير واحترام وتعظيم ظل أبو طالب على شركه حتى أتته منيته . وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال: ألم يكن أبو طالب صادقا فيما يقوله عن رسول الله ﷺ؟

لقد مر بنا شعره فى مدح الرسولﷺ ووصفه والدفاع عنه، وهجاء خصومه إلى غير ذلك وهو من حيث الصدق الواقعي صادق بلا ريب، فلم يجاف الحقيقة، ولم يحد عن الحق، ويتبع هذا الصدق ضرورة صدق المعرفة والعلم والإحاطة بما عليه واقع الرسولﷺ.

أما صدق الشعور والإحساس فتمثله تلك العاطفة الجياشة التى تملك عليه زمام نفسه وهو يصور بكل أسف وحزن ما عليه حال القوم من عداء للرسولﷺ،أو يصور بكل إباء وشمم عزة الرسولﷺ وما عليه حال المناصرين والموالين له من بأس ومنعة، أو يصور فى تحد ووعيد هزيمة المنكرين وخذلان المعاندين، أو يصور فى فرح وبهجة هزيمة الذين كادوا لرسول اللهﷺ، وهى عاطفة بلا شك صادقة يؤيدها واقع عملى فى حياة أبى طالب وابن أخيه عليه السلام:

حدبت بنفسى دونه وحميته ودافعت عنه بالذرى والكلاكل

ثم يبقى معنا من الصدق الاعتقاد القلبي، والصدق الفني، اما صدق الاعتقاد وهو الإيمان بالله وبرسوله، فلم يحظ به أبو طالب ولم يستطع الرسول ﷺ أن يسعد به من عمه على الرغم من محاولاته.

وأما الصدق الفني وهو أصالة أبى طالب في شعره ورجوعه فيه إلى ذات نفسه لا إلى العبارات التقليدية المحفوظة فإن ذلك سيتجلى بوضوح عند الحديث عن أسلوبه،وما به من صور فنية.

٣- الأسلوب.

يتسم أسلوب أبى طالب فى شعره بما يلى :

يتنوع الأسلوب بين التقرير والتصوير . أما التقرير فيبرز عند عرض الحقائق وتفسير المواقف، وذلك كقوله فى عرض موقف القرشين منه تجاه موقفه من مؤازرة الرسولﷺ، وفى عرض موقفه منهم:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل

وقد صارحونا بالعداوة والأذى وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

وقد حالفوا قوما علينا أظنة يعضون غيظا خلفنا الأنامل

إلى أن يقول :

فهل بعد هذا من معاذ لعائذ وهل من معيذ يتقي الله عاذل

أما الجانب التصويري الذى يعتمد على الخيال فى التجسيم والتشخيص والإيحاء والرمز فمن أمثلته قوله فى تشبيه عداوة القرشيين لبنى هاشم وما نتج عنها من قطيعة:

أخص خصوصا عبد شمس ونوفلا هما نبذانا مثل ما ينبذ الجمر

والإنسان ينبذ الجمر لأن فى القرب منه احتراقه وهلاكه، وكذلك كان الهاشميون الموالون لرسول الله ﷺ فى نظر غير الموالين وتلك صورة بلا شك تبرز موقف أعداء الدعوة وما فى أنفسهم من خوف واضطراب على أنفسهم وعلى سيادتهم من الدين الجديد.

وقبل هذه الصورة عرض أبو طالب لموقف السادة من بطون عبد شمس ونوفل ذلك الموقف السلبي الذى لا يليق بزعيم وسيد فقال:

أرى أخوينا من أبينا وأمنا إذا سئلا قالا إلى غيرنا الأمر

بلى لهما أمر ولكن تجرجما كما جرجمت من رأس ذي علق الصخر

وهذه الصورة توحي بالفزع بعد أن تخلى الإنسان عما تقتضيه السيادة وتوحي بالأسف بعد أن يتخلى الأخ عما تقتضيه الأخوة، فلم يكن سقوط المنزلة الاجتماعية والهيبة والسيادة أمرا خفيا وإنما كان فى علانية . وواضح أن كل هذا قد أوحى به التشبيه ((كما جرجمت من رأس ذي علق الصخر [1]))ومن أمثلة التصوير عن طريق التشبيه أيضاً قوله:

وإنا لعمر الله إن جد ما رأى لتلتبسن أسيافنا بالأماثل

بكفى فتى مثل الشهاب سميدع أخى ثقة حامى الحقيقة باسل

والصورة هنا حسية تبرز الخبرة من شباب بنى هاشم فى مواقف القتال أبطالا موسمين ذوى بأس شديد .

قد زاد هذه الصورة وضوحا فى تشبيه آخر فقال فى شأن من تعاهدوا على تمزيق صحيفة المقاطعة:

أعان عليها كل صقر كأنه إذا ما مشى فى رفرف الدرع أحرد

جرى على جلى الخطوب كأنه شهاب بكفي فارس يتوقد

والصورة المعنية فى البيت الثانى .

وقوله أيضاً فى تشبيه نهوض الفرسان للقتال دفاعاً عن النبىﷺ وهم يحملون أسلحة القتال فتحدث جلبة بالإبل التى تحمل مزادات المياه على ظهورها ، وهى صورة حسية توضح الحركة التى يكون عليها النهوض للقتال.

---

(١) – ذو علق: جبل فى ديار بنى أسد، ولعل اختياره فى سقوط الصخر من رأسه لارتفاعه الشاهق الذي يجعل سقوط الصخر من رأسه يحدث دويا وتكسيراً.

وعن طريق الاستعارة أتى أبو طالب فى شعره بالعديد من الصور منها قوله فى تصويره ذوى الأصل من قريش وغيرهم مما لا نسب له ممن تألبوا على معاداة الرسولﷺ بالسمين والغث من اللحوم:

تداعت قريش غثها وسمينها علينا فلم تظفر وطاشت حلومها

ومنها قوله فى تصوير فضل قومه من الهاشمين على من لا أصل له ومن له أصل من القرشيين بالإرواء الذي يحيي موات الأنفس والنباتات:

بنا انتعش العود الذواء وإنما بأكنافنا تندي وتنمى أرومها

ومنها قوله فى استعارة الناقة الحلوب التى لاصرار على أخلاقها لكونها مباحة الحلب، للحرب الضروس، وكل من الناقة والحرب تشترك فىصفة الإدرار، غير أن الناقة تدر على أصحابها لبنا والحرب تدر على أصحابها هلاكا:

فإن نك قوما نتئر[1] ما صنعتم وتحتلبوا بها لقحة غير باهل

ومنها قوله فى تصوير العزة والمنعة بالروضة

وإن امرأ أبو عتيبة عمه لفى روضة ما إن يسام المظالما

ومنها قوله فى تشخيص اليوم يشهد على من والى محمداًﷺ ومن عاداه

كذبتم وبيت الله نبزى محمدا ولما نروا يوما لدى الشعب قائما

وعن طريق الكناية فى مجال التصوير حفل شعر أبى طالب بكنايات متنوعة فهو مثلا يكنى عن الإباء والأنفة بتحول لون الوجه إلى السواد عند التعرض

---

(١) نتئر : نأخذ بثأرنا منكم

لا يجرح الكرامة، ويكنى عن طول السيف بطول حماله، يكنى عن يمن الوجه باستسقاء المطر، يكنى عن الكرم بكثرة رماد القدور، وكل ذلك فى قوله :

من الأكرمين من لؤى بن غالب إذا سيم خسفا وجهه يتربد

طويل النجاد خارج نصف ساقه على وجهه يسقى الغمام ويسعد

عظيم الرماد سيد وابن سيد يحض على مقرى الضيوف ويحشد

وكذلك كنى عن يمن الرسولﷺ وبركته بالاستسقاء بوجهه:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرمل

وكنى عن التفرق بالاحتطاب لمراجل وأقدر ، كما كنى عن التوحد بالاحتطاب لقدر واحدة:

وكنتم حديثا حطب قدر وأنتم الآن حطاب أقدر ومراجل

وقد جاءت معظم الصور فى شعر أبى طالب تقليدية تخلو من الجدة كما هو واضح فى الصور التى عرضت لها آنفا، وهناك صور قليلة تتسم بالجدة والطرافة وذلك كقوله فى التهكم من بعض من أظهروا له العناية به الخوف عليه:

ألا قل لعمرو والوليد ومطعم ألا ليت حظى من حياطتكم بكر

من الخور حبحاب كثير رغاؤه يرش على الساقين من بوله قطر

تخلف خلف الورد ليس بلاحق إذا ما علا الفيفاء قيل له وبر

وليست الجدة والطرافة فى ابتكار الصورة هنا، فمن المعروف أن طرفة بن العبد قد سبق بالابتكار عندما قال فى عمرو بن هند:

ليت لنا مكان الملك عمرو رغوثا حول قبتنا تحور[1]

وإنما هما فى تفصيل الصورة وما فيها من إضافات تخلع عليها مزيدا من الضعف والاحتقار.

ومن الصور الطريفة أيضا قوله يستحث أبا لهب على الإباء والمروءة والحمية:

أقول له وأين منه نصيحتى أبا معتب ثبت سوادك قائما

وهو يعنى بالسواد مقتضيات الهيئة الشاخصة من الصفات التى سبقت الإشارة إليها .

- يغلب الوضوح على أسلوب أبى طالب وفى أحيان قليلة يعتريه الغموض نتيجة استشكال نحوي أو عدم وضوح لغوي أو نتيجة عدم مراعاة لوضع البيت من القصيدة أو القطعة فى وضعه المناسب له والذي بقتضيه عرض الفكرة.

أما الاستشكال النحوي فقد جاء فى قوله :

وأن عليه فى العباد محبة ولا خر ممن خصه الله بالحب

---

(١) انظر شرح المعلقات السبع وأخبار شعرائها صـ٣٩ لأحمد امين الشنقيطى دار الكتاب العربى بيروت ١٩٨٥م.

والأشكال كما يقول السهيلي[1] لأن (لا) فى باب التبرئة لا تنصب مثل هذا إلا منونًا، وتنصب بغير تنوين إذا كان الاسم غير موصول بما بعده، وأشبه ما يقال فى بيت أبى طالب أن خيرا خفف من خيّر كهيّن وميّت، وقوله ممن من متعلقة بمحذوفة كأنه قال لا خير أخير ممن خصه الله، وخير وأخير من جنس واحد فحسن الحذف استثقالا لا لتكرار اللفظ.

وأما عدم الوضوح اللغوى فقد جاء نتيجة استخدام لألفاظ بدوية لا يسهل فهم المراد منها إلا بالرجوع على قواميس اللغة، وإن كان استخدام مثل هذه الألفاظ فى عصر أبى طالب أمرا طبيعياً، ومن ذلك قوله:

وحطمهم سمر الصفاح وسرحه وشبرقه وخد النعام الجوافل

فالسمر وهو (من شجر الطلح) والصفاح وهو (جمع صفح : عرض الجبل) والسرح وهو (شجر عظام) والشبرق وهو (نبات يقال ليابسه الحلي ولرطبه الشبرق) والوخد وهو (السير السريع) لا يفهم المعنى به إلا بالرجوع إلى قوامس اللغة.ومن الغموض المترتب على عدم وضع البيت فى المكان المناسب له فكريا قوله:

وهنا لهم حتى تبدد جمعهم ويحسر عنا كل باغ وجاهل

وكان لنا حوض السقاية فيهم ونحن الكدى من غالب والكواهل

شباب من المطيبين وهاشم كبيض السيوف بين أيدي الصياقل

فما أدركوا ذخلا ولا سفكوا دما ولا حالفوا إلا شرار القبائل

بضرب ترى الفتيان فيه كأنهم ضوارى أسود فوق لحم خرادل

---

(١) الروض الآنف ٢/١١٠

بنـــى أمـــة محبوبـــة هندكيـــة بنـــى جمـــح عبيـــد قـــيس بـــن عاقـــل

فالبيت الثانى والثالث من هـذه الأبيـات مـدح للـهاشميين وخلفـائهم، وهـو مقحم فى سياق الذم لمن عاداهم وخذلهم وتحالف ضدهم، هذا الإقحام مخـل بالوضوح هنا، ولو تأخر البيتان إلى ما بعد البيت السابع الذى يقول فيه:

ولكننـــا نســـل كـــرام لســـادة بهم نعـى القـوام عنـد البواطـل

فقيل:

شباب من المطيبين .....إلخ

وكان لنا حوض السقاية فيهم .....إلخ

لكان أقوم، ولعل هذا الإقحام هو ما جعل محققي السيرة[1] لابن هشام يصفون هذه الأبيات بالوضع.

ختم فى ١٥/رمضان /١٤١٠هـ ١٩٩٠/٤/١١م

وأعيد تنقيحه فى رمضان /١٤٢٦هـ ٢٠٠٥/١٠/٥م

تمت.....

(١) انظر هامش القسم الأول صـ٢٧٩-.

كلمة أخيرة

فى نهاية هذه الدراسة، أود أن أثبت بعض الملاحظات التى عنت على ضوء مقدمتها وفصليها:

١-شغل أبو طالب بمناصرة الرسول ﷺ وحمايته فترة طويلة من حياته ؛ فصدر معظم شعره عن تجارب تنبثق من هذا الموقف.

٢-وكانت الجدة فى المواقف ذات انعكاس واضح على الأسلوب تجلى فى أمور منها تجرد القصائد من المقدمات التى عهدت فى قصائد القدماء.

٣-عكست التجارب المؤلمة التى أفرزها العداء والكره والتخاذل عاطفة حزن ممض عاناها أبو طالب وأشفق منها .

٤-من الواضح أن أبا طالب لم يحفل بشعره كثيراً فى حياته، مما جعل ذاكرة التاريخ لا تعى إلا القليل منه من جهه، ومما جعل الفرصة من جهه أخرى متاحة – بصورة أكبر – لوضع بعض الأشعار ونسبتها إليه، خاصة من قبل الشيعة الذين يروق لهم أن يصنفوا أبا طالب فى عداد الفحول من الشعراء، ليثبتوا من خلال ما يصنعون ما يعتقدون من آراء ومذاهب وغيرها.

٥-لم تتوفر حتى الآن – حسب علمى- لشعر أبى طالب دراسة جادة تحققه لتثبت صحيحه، وتنفى عنه الموضوع والدخيل وتفرز منه ما يهيء لدراسة فنية عنه عامة، أو للجانب المتعلق بالمناصرة والتأييد خاصة، ومن ثم كانت الدراسة الفنية فى هذا البحث مختصرة.

ولعل الفرصة تتاح لتحقيق شعر أبى طالب تحقيقاً علمياً جادا يهيئ لدراسة فنية تروى الظمأ وتسد الرمق ، وتسمن وتغنى من جوع.

المصادر والمراجع

أولاً – المصادر :

١- ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم (ت٦٣٠هـ).

الكامل فى التاريخ – دار الكتاب العربى . بيروت . الطبعة الرابعة ١٩٨٣م.

٢- البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ).

صحيح البخاري بحاشية السندي – دار إحياء الكتب العلمية. القاهرة

٣- السهيلى: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت٥٨١هـ)

الروض الآنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام – مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٩٧١م.

٤- ابن سيد الناس: محمد عبد الله بن يحيى (ت٧٣٤هـ)

عيون الأثر فى فنون المغازي والسير – مكتبة القدسي . القاهرة١٩٨٦م.

٥- ابن عبد ربه: أحمد بن محمد الأندلسي (ت٣٢٨هـ).

العقد الفريد دار الكتب العلمية ببيروت . تحقيق الدكتور عبد المجيد الترجينى.

٦- ابن كثير: أبو الفدا : الحافظ بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ) .

البداية والنهاية – مكتبة المعارف. بيروت، مكتبة النصر. الرياض الطبعة الأولى ١٩٦٦م.

٧- المصعب الزبيرى: أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى (٢٣٦هـ)

نسب قريش – دار المعارف. سلسلة دخائر العرب رقم ١١ الطبعة الثانية.

٨- ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت٧١١هـ).

لسان العرب – دار المعارف القاهرة.

٩- ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى (٢١٣هـ)

السيرة النبوية – دار الكتب العلمية. بيروت تحقيق مصطفى السقا و

إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى.

ثانيا – المراجع:

١- أحمد بن الأمين الشنقيطي:

شرح المعلقات السبع وأخبار شعرائها – دار الكتب العربي. بيروت ١٩٨٥م

٢- محمد الطيب النجار (الدكتور):

سيرة الرسولﷺ – مكتبة الجامعة الأزهرية. القاهرة

٣- محمد فؤاد عبد الباقي:

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – دار الحديث. القاهرة١٩٨٦م.

٤- محمد فريد وجدي:

دائرة معارف القرن العشرين – مطبعة النهضة الأدبية . القاهرة

٥- محمد يوسف الكاندهلوي:

حياة الصحابة – المكتبة الإسلامية بالأزهر.

٦-منير محمد الغضبان:

المنهج الحركي للسيرة النبوية – مكتبة المنار. الأردن الطبعة الرابعة١٩٨٩.

٧- ياسين الأيوبي (الدكتور):

معجم الشعراء فى لسان العرب – بيروت. دار العلم للملايين ١٩٨٢م.